الجذور اللغوية لأهل الشام

في جميع البلاد العربية يتكلم الناس لغتين، أو لهجتين:

الأولى: نستعملها في الكتابة والإذاعة، وفي دواوين الحكومة، والخطابة.. إلخ، وتسمى: اللغة العربية الفصيحة، أو الفصحى. وأهم خصائصها أنها معربة مضبوطة بالحركات المعروفة في قواعد النحو..

والثانية: اللهجة العاميّة المستعملة في الشارع والسوق والبيت.. وتختلف عن الفصيحة، بأنها لا تساير قواعد النحو العربي، وأنها تتفرع إلى أكثر من مئة لهجة ولهجة، بل ألف لهجة ولهجة؛ حيث تكون مختلفة بين قريتين متجاورتين أحياناً. فمن أين جاءَتنا اللغتان؛ وما زمن وجودهما، ومَن المؤسّسُ، والمُورِّث؟ الجواب في هذا الموجز:

تنتسب لغتنا العربية الفصحى إلى تلك المجموعة اللغوية التي أطلق عليها الأوروبيون اسم «اللغات الساميّة»، وقد رفضنا هذه التسمية لأسباب:

منها: أن الاسم من اختراع الأوربيين في العصر الحديث، وليس له ذكْر في التراث العربي، ولسنا خاضعين لوصاية أحد، كي يضع لنا أسماءَنا.

ومنها: أننا لا نعترف بوجود جدّ اسمه «سام»؛ لأنه من نسج خيال التوراة، فنحن أدرى بأنسابنا من اليهود.

ومنها: أنهم جعلوها «لغات»، جمع لغة. واللغة في التعبير الحديث تعني الانفراد والتميز في جذور اللغة وفروعها عن اللغات الأخرى. والحقيقة أنها لهجات تتفق كلها في الجذور وكثير من الفروع، قد تختلف فيما بينها بمقدار ما تختلف اللهجات العامية في الوطن العربي، وجميعها ذات منبع واحد.

ومنها: أنه لا يوجد شعب في التاريخ (من بين الشعوب التي تكلمت هذه اللهجات) اسمه الشعب السامي.

ولذلك نهجنا منهج المؤرخين العرب الأحرار، وضممنا صوتنا إلى صوتهم، واخترنا اسم: «اللهجات العربية»، فما كان منها موغلاً في القدم في بدايات النشأة، قلنا: «العربية العتيقة»، وما كان في مرحلة وسطى قلنا: «العربية القديمة»، أما ما نطق به القرآن والحديث والشعر الجاهلي، فهو «اللغة الفصحى».

وجمع هذه اللهجات تحت اسم «العربية» حقٌّ وطني، وحقٌّ تاريخي؛ ذلك أن العرب شعب من هذه الشعوب، و«العرب» أكثر هذه الشعوب نقاءً وامتداداً واستمراراً؛ فقد عُرف اسم العرب منذ القرن العاشر قبل الميلاد في النقوش الأثرية التي وصلتنا، ولابُدَّ أنه كان موجوداً قبل هذا التاريخ؛ لأن الأسماء لا تُعتمد عند الآخرين إلا إذا شاعت وذاعت..

وها هوذا اسم العرب بقي موجوداً إلى يومنا هذا، لم ينقطع ذكره، ولم ينقطع الشعب الذي تسمى باسم العرب عبر القرون.

أما «الكنعانية» و«الأكدية» و«الآراميّة» و«الآشورية» وغيرها، فقد عاش الشعب مُدَّة، ثم انقرض اسمه بانقراض دولته، وامتزج في غيره..

فلم يمتدَّ الكلام بلهجة كما امتد الزمن باللغة العربية، وليس هناك فصيل امتدَّ اسمه كما امتدَّ الزمن باسم العرب.

فعامل القرابة اللغوية بين العربية واللهجات الأخرى، وعامل وحدة المكان (الجزيرة العربية)، وعامل الامتداد الزمني مع الوجود الحيّ المستمر، كلها تفرض اسم «العربيّة» وصفاً لكل أخوات العربية.. ولستُ بسبيل كتابة بحث في اللغة، ولكنني أذكر من هذا الجانب ما له صلة بالتاريخ الحضاري الذي ساد في بلادنا فلسطين بخاصة، وفي بلاد الشام بعامّة؛ لأن «فلسطين» لم تكن لها الحدود السياسية والثقافية، وإنما كانت جزءاً من بلاد الشام، أو بلاد الجزيرة العربية.

ونحن لا نقول: إنَّ العربية الفصحى التي أدركناها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، هي اللهجة نفسها التي تكلم بها العربُ في أول نشأتهم، كما أنها ليست اللهجة التي تكلمت بها الشعوب العربية الأخرى في وادي الرافدين والشام في قرون ما قبل الميلاد، بعشرات القرون؛ لأن القول به زعْم مغاير لمنطق التطور التاريخي

الاجتماعي، وتدحضه أيضاً آلاف الوثائق والنصوص المكتشفة في بلاد الرافدين والشام ووادي النيل، وجنوب الجزيرة العربية، إضافة إلى النصوص القرطاجية الكنعانية (الفينيقية) في شمال أفريقية.

وإنما نقول: إن العربية الفُصحى طور من أطوار هذه اللغة لا ندري على وجه التحديد متى تمَّ لها هذا الشكل الذي نقرؤه في الشعر الجاهلي والقرآن؛ فالشعر الجاهلي الذي وصلنا لا يمثل بداية الشعر أو بداية العربية الفصحى، ذلك أن أقدم شعر وصلنا، كان قبل الإسلام بقرن أو يزيد قليلاً. وليس كلُّ ما قاله الجاهليون من الشعر قد وصلنا، قال أبو عمرو بن العلاء: «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله، ولو جاءَكم وافراً لجاءَكم علمٌ وشعر كثير». [عن طبقات الشعراء ـ لابن سلام الجمحي].

ونحن نرى أن البدايات الأولى لتكوين العربية الفصحى، كانت قبل الميلاد بحوالي خمسة قرون، وذلك منذ دخلت بلاد الشام تحت الحكم الأجنبي المباشر؛ حيث حكم الفرسُ فلسطين منذ (538 ق.م)، ثم تبعهم اليونان فالرومان إلى الفتح العربي الإسلامي. في هذا الزمن كان الانفصال بين عرب أهل الشام، وعرب الحجاز واليمن ونجد، ونتج عن هذا الانفصال وقلة التنقل بين جنوب جزيرة العرب وشمالها، تكوّن لهجة عربية تبتعد عن لهجة العرب في الشام. وكأن اللغة الفصحى انفصلت عن اللهجة الآرامية التي سادت في بلاد الشام إلى الفتح الإسلامي، وذلك لما يظهر من القرب بين الآرامية في القرن السادس قبل الميلاد، والعربية الفصحى التي جاء بها القرآن.. ولكن هذا لا يعني أن العربية الفصحى بقيت مقصورة على الحجاز ونجد حتى الفتح الإسلامي لبلاد الشام، بل دخلت إلى بلاد الشام قبل الإسلام بقرون عديدة، ذلك أن العرب الناطقين بالفصحى، بدؤوا التسرب إلى بلاد الشام منذ الحكم الروماني.. وكونوا ممالك، ولهم ملوك تحت الوصاية الروميّة.. ومثال هؤلاء: الغساسنة. وربما وصلت العربية الفصحى إلى صورتها التي وصلتنا مع بداية القرن الأول للميلاد.

.. هذا وقد سادت في فلسطين ثلاث لهجات عربية بالتوالي: الكنعانية، ثم الآرامية والسريانية، ثم العربية الفصحى.. لم تُعرف لغةٌ في فلسطين قبل اللغة

العربية الكنعانية. وكانت هي اللغة المحكية في فلسطين والشام. . والكلمات التالية تبيّن المشابهة بين اللهجتين العربيتين: العربية الكنعانية، والعربية الحديثة، وسوف نلاحظ أن الفرق بينهما لفظي (لهجيّ) فقط. . وسبب هذا الاختلاف بُعْد الزمن بين بداية اللغة الكنعانية، التي تُعدُّ أم اللهجات العربية، وزمن لغة القرآن؛ فإنَّ بين الإسلام وبين هذه القبائل ما يُنَيِّفُ على أربعين قرناً، والأمم تتغير تقاليدها ولغاتها بتغير الأقطار وتبدل الأقاليم وتوالي العصور.

العربية الكنعانية	العربية الحديثة
صيدون	صَيْد
جشور	جسر
دقق	دقيق
قرت	قرية
قدموس	قديم
طيابا	طيب
داب	دابة
كتن	كتان
يشمع إيل	إسماعيل، أو «يسمع الله»
لاهام	لحم
أوتيك	عتيق
دامور	تمور
بصّة	بصة (المستنقع)
بَاراق	برق
حمور	حمار
شمش	شمس
لسن	لسان
نحس	نحاس

obeikandl.com

. . ثم جاءَت اللهجة الآرامية، فورثت ما تركته الكنعانية، وزادت عليه بحكم تعاقب القرون، والتغيرات التي تطرأ على الحياة. واللهجة العربية الآراميّة تكلمها أهل سورية ـ ومنها فلسطين ـ من نحو القرن الثامن قبل الميلاد إلى نهاية القرن الثامن بعد المسيح. وكانت هي اللغة الرسميّة التي تتفاهم بها الأمم الحيّة في القرون الأولى قبل الميلاد، من إيران شرقاً إلى سورية غرباً، ومن آشور شمالاً إلى فلسطين جنوباً، وصمدت اللهجة الآراميّة في وجه لغات المستعمرين الدخلاء من الفرس واليونان والرومان، ولم تستجب إلا لأختها العربية الفصحى عندما عمَّ الإسلام بلاد الشام.

ولما فتح العرب المسلمون سورية والعراق في القرن السابع بعد الميلاد، كانت اللهجة السريانية[1] ـ وهي لهجة من لهجات الآرامية ـ لغتهما المحكية، وما زالت حتى الآن لغة الطقوس الكنسية لمعظم مسيحيي الشرق الأدنى من نساطرة ويعاقبة وسريان كاثوليك، وموارنة. وكانت الآراميّة لغة المسيح عيسى بن مريم.

وتُعدُّ اللهجة الآرامية أقرب اللهجات القديمة التي تبشر بالعربية الفصحى؛ حيث أخذت الآرامية تعمّ الجزيرة السورية، وباقي ربوع الشام، بدءاً من القرن العاشر ق. م، ثم تغلبت على شتى لهجات الهلال الخصيب بعد سقوط نينوى والسلطان الآشوري (612 ق. م) لتصبح لغة دولية في العصر الفارسي الأخميني (550 ـ 331 ق. م)، ثم تفرعت منها لهجات مختلفة، ومنها: السريانية، والنبطية ـ التدمرية، والآرامية الفلسطينية. .

وها هوذا نصٌّ آرامي من القرن الثامن ق. م عُثر عليه في «زنجرلي»، وهي مملكة آرامية، تقع الآن في الأراضي التركية، بعد اتفاقية (سايكس بيكو)، وفي وجودها دليل على أن الجزيرة العربية، وموطن العرب يمتد متوغلاً في أراضي الحكومة التركية: وهذا ما جاء في النقش مع المقارنة بالعربية:

---

(1) عندما تنصّرت القبائل الآراميّة في القرن الأول الميلادي غيرت اسمها إلى شعوب«سورية»، ولغتهم «سوريّة»، ثم قيل لها: سريانية، ولكن هذه التفرقة العربية لا تغيّر الحقيقة أن «سرياني» معناه سوري، وأن «سريانية» معناها اللغة السورية، بمعنى أنها كانت شائعة في سورية. وقد غيّروا اسمهم؛ لأنَّ الاسم «آرامي» كان يذكرهم بوثنيتهم. ولفظ «آرامي» يعني: «وثني».

النص الآرامي	المعنى بالعربية الفصحى
1- إنه بر، ركب برفنمو	1- أنا ابن ركب ابن فنمو
2- ملك شمأل عبد فلان مراربعي	2- ملك شمال عبد فلان سيد الأربع
3- أرصا بصدق أبي وبصدقي	3- الأرض (جهات الأرض الأربع) بصدق أبي وبصدقي
4- هو تشبني مراي ركبايل ومراي فلان	4- أجلسني سيدي ركب إيل وسيدي فلان
5- على كرسا أبي أنه بنيت بيتا زنه.	5- على عرش أبي أنا بنيت البيت هذا.

تاريخ هذا النص القرن الثامن قبل الميلاد، ووجد في أقصى شمال بلاد العرب، ومع ذلك لا يخلو من مشابهات لعربيتنا في المفردات، وسياق الجملة، علماً بأنه قبل الإسلام بنحو أربعة عشر قرناً.

وإليك التعليقات التالية على النص:

• أنه (وأحياناً أنا) ضمير رفع منفصل متكلم مفرد.

• بر: بمعنى ابن. ولدينا في العربية فعل: برّ، بمعنى أطاع، والابن البرّ والبار: المطيع لوالده.

• ملك؛ عبد، بمعنى: تابع.

• مار (السيد) ولدينا جذر مرَّ، أمرَّ. ونقول: المرَّة: قوة الخلق وشدته وأصالة العقل. ورجل مرير: قوي. والمريرة: عزة النفس. وفي العاميّة من السريانية (مار جرجس) و(مار الياس) بمعنى: قدّيس، وسيد.

فهذه المدلولات تتضمن معاني ذات صلة قريبة أو بعيدة بالكلمة الأصلية (مار/ سيد).

• ملك شمأل (دولة الشمال). بصدق أبي وبصدقي. (عل) على. (كرسا) نقول: كرسي العرش. أنه (أنا) بنيتْ (الضمير المتصل التاء يأتي ساكناً في المتكلم المفرد، مؤنثاً ومذكراً. وفي المخاطب المفرد المذكر تقول: (بنيته، أو بنيت)، وفي المخاطب المفرد المؤنث نقول: «بنيتي ـ بالياء ـ»، وفي العربية تنوب الكسرة عن الياء.

ولنأخذ جملة (أنه بنيتْ بيتا زنه) ـ (أنا بنيت البيت هذا) والألف في «بيتا» هي الـ التعريف في الآرامية القديمة، وانقلبت إلى واو في بعض اللهجات السريانية.

• وهناك جوامع كثيرة تربط اللهجات العربية، قديمها وحديثها، وإليك أشهر هذه الجوامع:

1 ـ اشتقاق أكثر المفردات من جذر ثلاثي، ولذلك أطلق علماء اللغة عليها صفة «ثلاثية الجذر».

2 ـ تفردها بأصوات الإطباق (القاف، والصاد، والطاء، والظاء، والضاد).

3 ـ يأتي العدد فيها من 3 ـ 10 على عكس المعدود. مذكراً مع المؤنث، ومؤنثاً مع المذكر، ويأتي العددان واحد واثنان موافقين للمعدود.

4 ـ تشابه الضمائر المنفصلة، وطريقة ارتباط الضمائر المتصلة بالأفعال والأسماء والحروف.

5 ـ التشابه الكبير في المفردات الدالة على أعضاء الجسم والعدد، وصلات القرابة، ومختلف مرافق الحياة المألوفة لدى أسلافنا في العصور القديمة وحتى صدر الإسلام، إضافة إلى التشابه في الضمائر والحروف وأسماء الإشارة.

6 ـ تجتمع مع العربية الفصحى في جذور أكثر المفردات. .

وإليك الجدول المقارن لبعض اللهجات العربية:

عربي	أكدي، بابلي آشوري	كنعاني	آرامي/ سرياني	يمني/حبشي
أب	أبو	أب	أبا	أب
ابن	بنو	بن	برّ	بن
أخ	أخو	أخ	أخ	أخو
أذن	إزنو	إزن	اود	أزن
أربع	أربعو	أربع	أربع	أربع
اسم	شومو	شم	شم	شم
أم	أمّو	أم	أما	أم
جمل	جملو	جمل	جمل	جمل
دم	دمو	دم	دم	دم

عربي	أكدي، بابلي آشوري	كنعاني	آرامي/ سرياني	يمني/حبشي
و/ حرف عطف	و	و	و	و
زرْع	زرْو	زرْع	زَرْها	زَرْع
يد	أدو	يد	أيدا	أد
كوكب	كاكبو	كوكب	ككبا/ كوخبا	كوكب
ماء	مو	مايم	مايا	ماي
مَوْت	موتو	موَت	موتا	موت
عين	أنو	عين	عينا	عين
شمس	شمشو	شمش	شمشا	شمس
ثلاث	شلاشو	شلوش	ثلاث	شلاس
ولد		يلد	يلد	

. . وارجع إلى أسماء المدن والقرى الكنعانية والآراميّة، تجد القربى الوشيجة بين جذر العربية الفصحى، وبين جذر هاتين اللغتين بل اللهجتين العربيتين على قدمهما.

هجرات عربيّة، أم طبقات زمانية بعد الكنعانيين؟

رجحنا في تأريخ العرب الكنعانيين، أنهم امتداد في الزمان والمكان للجنس العربي في بلاد الشام، الذي كان موجوداً قبل التاريخ، وكان أقدم اسم عرفناه لهؤلاء العرب المتجذرين قبل زمن التأريخ هو اسم «الكنعانيين»، ومهما كانت العلة في الاسم، أو اشتقاقه اللغوي، فقد ثبت بالدليل القاطع أنهم عربٌ، وأن لسانهم عربيٌّ عتيق، بل هو أقدم لهجة عربية وصلتنا.

وليس عندنا معرفة باللهجة السابقة على اللهجة الكنعانية؛ لأن التدوين لم يقيدها، أو لأنَّ الكتابة لم تكن قد اخترعتْ.

ونحن نرى أن الكلام، أو اللغة المتكونة من مفردات اسميّة وفعلية قديمة جداً، وُجدت مع وجود الإنسان على وجه الأرض.

ولسنا منقادين وراء مَنْ يقول: إن التفاهم بين البشر بدأ بالإشارات فالأصوات، فالكلمات أحادية الصوت أو ثنائيته، ثم كانت اللغة، وشبهوا حالة التطور اللغوي بما يكون في حال الطفل؛ ذلك أنَّ دراساتهم تقوم على الظن والتوهم والقياس الفاسد.

وعندنا أدلة ثابتة لا تقبل التأويل: وهي الأدلة القرآنية التي تقول: إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم: وأحسن تقويم، لا يُراد به تمام الخَلْق وحُسْنه، فمن تمام النعمة أن يعلمه الكلام أيضاً.

وفي القرآن الكريم حوار بين ابني آدم، قال أحدهما للآخر: لأقتلنك، فقال الآخر: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾، وهذه الأسماء لابدَّ أن تكون منطوقة بكلام ذي حروف، وأرسل الله الأنبياء إلى الأمم قبل معرفتنا بالكنعانيين بآلاف السنين مثل نوح، وإدريس، وهود.. والأنبياء يحملون رسالة يبلغونها إلى أقوامهم..

وليس هدفنا أن نؤرخ لبداية الكلام وبداية اللغة، ولكننا أردنا القول: إن اكتشاف اللغة المكتوبة مع بداية العصر التاريخي - في الألف الرابعة قبل الميلاد - لا يعني أن اللغة قرينة وجود الكتابة.

وقد بقي اسم «كنعان» و«الكنعانيين» يطلق على أرض فلسطين وشعبها إلى زمن المسيح عليه السلام. وعرف التاريخ أسماء أقوام أخرى تتابع وجودهم في عصور ما قبل الميلاد، وامتداداً إلى بداية العصر الإسلامي.

فهل كان هؤلاء الأقوام فروعاً من الكنعانيين وبطوناً منهم انفصل اسمهم كما انفصلت بطون من القبائل العربية التي نعرفها؛ فهناك قبيلة قريش، فانفصل عن الاسم «الأمويون» و«الهاشميون».. إلخ؟ أم أنَّ هؤلاء هاجروا إلى الشام من مناطق أخرى في الجزيرة العربية؟.

الجواب: بَعد أن أسسنا عروبة الأرض بوصفها جزءاً من جزيرة العرب، وأسسنا عروبة السكان من الأزل، ببياننا أن الكنعانيين من العرب، وأنهم تطور اجتماعي للإنسان قبل العهد التاريخي في أرض فلسطين، ولم يهاجروا إليها من مكان آخر. بعد هذا، يكون الكلام في طبقات الشعوب والأنساب الأخرى المذكورة في تاريخ فلسطين، يحتمل الوجهين: قد يكون منهم الفرع عن الأصل، وقد يكون منهم المهاجر إليها.

وإليك تعريفاً بالشعوب المذكورة في تأريخ أرض فلسطين العربية: